

النشاط الزراعي لفلاح بيرزيت على مدار السنة

مجلة التراث والمجتمع العدد 1 - منير ناصر - 1974/04/24 م - 01:30 م



يعتمد الفلاح اعتماداً شديداً على الأحوال المناخية، إذ هي تارة ترحمه وتارة تقسو عليه، فالمطر قد يهطل في حينه أو متأخراً وفترة الجفاف قد تطول أو تقصر .

تحت معظم هذه الظروف يكون موقف الفلاح الانتظار . وهذا العامل يسبب في كثير من الأحيان اضطراب الانتظام في حياة الفلاح . لكن، وبالرغم من ذلك ، فإن انتظاماً معيناً وقواعد راسخة تسيّر الزراعة على هداها . فالسنة عند الفلاح مقسمة إلى ستة مواسم زراعية تقريباً، وهي :

1. تشرين الثاني: موسم الحرث وزراعة الحبوب.
 2. كوانين: موسم الأمطار.
 3. آذار ونسيان وأيار: موسم حرث الأرض المشجرة وزراعة الخضروات والتتقيب وحصاد القطني.
 4. حزيران وتموز: موسم حصاد القمح والشعير وتغطية العنب.
 5. آب وأيلول: موسم قطف العنب والتين.
 6. تشارين: موسم الزيتون.
- وسنتناول فيما يلي الميزة والنشاط لكل موسم على حدة.
- أولاً: موسم الحرث وزراعة الحبوب.

فالقاعدة العامة أنه لا يستطيع الفلاح المباشرة في الحرث والزراعة إلا بعد ارتواء التربة بالماء.. إذ أن العفير، أي البدء في الزراعة قبل ارتواء التربة، لا يصلح في بيرزيت. ويكفي لارتواء التربة أن تهطل الأمطار 24 ساعة متواصلة. أي طيلة الليل وطيلة النهار. وللتحقيق من ذلك يجب أن لا تصل السكة¹ إلى التربة الجافة، أو يستعاض عن ذلك بالتأكد من أن طبقة الأرض

¹ . آلة الحرث ويجرها الحيوان.



المشبعة بالماء تبلغ شبراً من الطول. وما أن يطل "عيد لد" 2² 16 تشرين الثاني حتى يكون قد تم ارتواء الأرض. ومن هنا القول: عيد لد قد³ وجد⁴. وفي السابق كان يبدأ الفلاح عملية الحرث وقطف الزيتون بعد هذا العيد. ولكن عندما تقسو الأحوال المناخية يتأخر ارتواء التربة إلى ما بعد هذا التاريخ، وسيكون موسماً زراعياً سيئاً، إن لم تسقط الأمطار الكافية قبل عيد بربارة⁵ 17 كانون أول. عندما سيترام العمل على الفلاح سيضطر للحرث والزرع متأخراً. على أية حال، إن ارتوت الأرض في حينه، ينتظر الفلاح من 3 - 8 أيام قبل الفلحة⁶. أي حين يتحول الوحل إلى تربة رطبة يسهل حرثها.

وأحياناً لا يحتاج ذلك إلى أكثر من ثلاثة أيام عندما تكون الأرض عطشى (وتسمى: الأرض كبيرة) قبل هطول المطر. أما الفلحة فتتم على النحو التالي: تقسم الأرض إلى أجزاء (كل جزء يسمى قطوعة) وذلك بأن يحرث الفلاح تلمين⁷ متباعدين على مسافة 6-8 متر. ثم ترش البذور في قطوعة واحدة فقط. وبعد ذلك يتم حرثها. وبذلك يعرف الفلاح أي جزء من الأرض قد بذر، فلن يغادر الحقل قبل حرث القطوعة وإلا مكثت البذور على سطح الأرض والتقطتها الطيور. أما ما يزرع في هذا الوقت فهو القطناني (العدس، البيكة، والكرسنة) والقمح والشعير وكذلك البصل والثوم الخ. والفلحة قد تستمر في كانون أول وكانون الثاني والنصف الأول من شباط. **ثانياً: موسم الأمطار.**

ينقطع الفلاح عن العمل في الأيام الماطرة، ولكنه قد يفلح الأرض في الأيام الأخرى ويستعد للموسم القادم وكذلك في هذه الفترة تتم زراعة الأشجار كالزيتون والعنب والتين. **ثالثاً: موسم حرث الأرض الشجرية الخ.**

أما حرثة الأرض المشجرة بالبرقوق والزيتون والعنب والتين واللوز والجوز فيمكن أن تتم في أشهر آذار ونيسان ولكن لا يمكن أن تستمر إلى ما بعد عيد الخضر⁸ 6 أيار، لأن شق الأرض سيعرضها للجفاف نتيجة التبخر الزائد الناتج عن ارتفاع درجة الحرارة في هذا الوقت من السنة. ومن الجدير بالذكر أنه في هذه الأشهر وعلى تباعد زمني يقرب من الشهر تحرث الأرض

² . مناسبة نقل رفات الخضر إلى اللد. والتواريخ في المقال معطاة حسب التقويم العربي.

³ . قدت السكة الأرض أي شقتها.

⁴ . ضرب أشجار الزيتون بالعصي لإسقاط الثمر.

⁵ . قديسة.

⁶ . حرث الأرض بعد رشها بالبذور، وتسمى أيضاً بذار أو تشليف.

⁷ . الشق في الأرض الذي تصنعه السكة.

⁸ . مولد الخضر.



مرتين، الولي: في أوائل نيسان وتسمى كراب⁹، والثانية: في أوائل نيسان وتسمى ثناية. وأحيانا وهذا هو المستحسن، تحرث الأرض للمرة الثالثة في أوائل أيار (تثليث). وفي نفس الفترة الزمنية المذكورة وفي آذار بالذات تتم عملية تقييد الأشجار كالعنب والتين والبرقوق واللوز. وفي الفترة الزمنية الواقعة في النصف الثاني من آذار وكل نيسان وأوائل أيار تصرفها الفلاحة في الحش¹⁰ وذلك من مطلع الشمس وحتى الساعة العاشرة صباحاً تقريباً. ففي هذه الفترة يكون الحشيش قد أزهى وتصلب مما يزيد في فائدته الغذائية وخصوصاً بالنسبة لحيوانات الجر، ولن يسبب اضطراباً هضمياً كما يحصل غالباً عند تناول الحيوان للحشيش الأخضر. وما أن يصل الزمن بالفلاح إلى النصف الثاني من أيار حتى يحين حصاد القطني. ويجب أن يتم ذلك قبل تمام اصفرار العظمة (الساق) أو نضوج الجرس (الثمر) لئلا يسقط الحب على الأرض ويذهب سدى.

رابعاً: موسم حصاد القمح والشعير وتغطية العنب.

ففي حزيران يكون حصاد الشعير والقمح بعد تمام اصفرار النبتة وإلا كانت حبة القمح مثلاً غير مكتملة وقابلة للالتواء فتسقط من تقوُب الغريبال فيصعب تنقيتها. والحصادون يختارون عادة الأيام الندية وذلك لتجنب الآلام الناتجة عن وخز الأشواك النامية بين القمح والشعير. وتتوقف على الكمية المحصودة أن يباشر الفلاح فوراً في درس¹¹ المحصول أم تركه على البيادر¹² ريثما ينتهي من غطاء العنب. وهذا الأخير يبدأ في 7 تموز ويهدف إلى حماية العنب من الندى ورذاذ المطر وكليهما يسببان تشقق العنب وبالتالي تعفنه السريع. وكذلك حمايته من الحشرات والطيور. والغطاء عبارة عن طبقة من أغصان وأوراق العنب فوقها طبقة من النتش ثم حجارة صغيرة. أما قطف وبيع البرقوق والتفاح والأجاص والخضار فيبدأ بعد الغطاء. وقيل ذلك وقبلاً بعده يكون موسم جني المشمش والتوت. أما بالنسبة للوز والجوز فيفضل أن يجنى قرابة عيد الصليب¹³ 27 أيلول حيث يكون الثمر قد اكتمل ويصلح خزنه لسنتين.

ولكن تحسباً من السرقة، يجنى عادة اللوز والجوز سوياً مع البرقوق والتفاح، أي مباشرة بعد غطاء العنب مع ما يجلبه ذلك من خسارة في نوعية الثمر. ولا بد من الذكر عن صنع السلال من أغصان الزيتون اليانعة وأغصان العليق يتم في أوائل هذه الفترة أيضاً نظراً لنمو تلك الأغصان في أثنائها.

خامساً: موسم قطف العنب والتين

ابتداءً من عيد العذراء¹⁴ 28 آب يستطيع الفلاح البدء في قطف العنب (في آب اقطع القطف ما تهاب). وقسم من الثمر يباع والقسم الآخر يصنع إلى نبيذ أو خل أو زبيب أو مربى أو ملبن. وما أن يقترب عيد الصليب حتى يكون جني العنب قد انتهى

⁹ . كرب كرايا الأرض أي قلبها للحراثة.

¹⁰ . جمع الحشيش.

¹¹ . الحصول على القمح أو الشعير بعد فصل التبن عنه. ويتم ذلك على البيادر حيث يجر الحصان أو البغل لوحاً ثقيلاً فوق القمح اليابس. ثم يلقي الناتج في الهواء فيتطاير التبن الخفيف بعيداً ويسقط القمح مكانه.

¹² . مساحة صخرية سهلة السطح.

¹³ . يعتقد أنه في هذا اليوم عثر على الصليب الذي صلب عليه السيد المسيح.

¹⁴ . عيد رقاد أو وفاة العذراء.



وذلك خوفاً من تساقط الأمطار التي تسبب تعفن الثمر. وينضج التين في نفس الفترة الزمنية كالعنب تقريباً. وقد يبلع جزء من الثمر، ولكن أكثره يتحول إلى قطين. فبعد جمع القطين المتساقط يوضع على مساحة من الأرض بعد إزالة الحجارة عنها (المسطح) ويترك هناك حتى تستوفي عملية التجفيف حيث ينقل إلى البيوت ويحفظ بعد رصه في الخابية أو الصحارة. ويستمر موسم التين إلى منتصف تشرين أول. وجرت العادة أن يعزب¹⁵ الفلاح في كوم التين أو العنب طيلة مدة الأثمار وذلك للحماية. ويصنع لذلك إما العريشة¹⁶ أو القصر¹⁷.

سادساً: موسم الزيتون

أما الخريف فهو موسم الزيتون وهذه الشجرة متوفرة بكثرة في أودية وتلال بيرزيت. لعل القارئ استطاع أن يقرن بين هذه الحقيقة وبين اسم المدينة. فكانت كميات زيت الزيتون الضخمة التي ينتجها الفلاح سنوياً تحفظ في آبار محفورة في الصخر (كانت تحفظ في آبار الزيت). وعلى عكس العنب والتين فإن ثمرة الزيتون لا تتضرر بتاتا من سقوط الأمطار، بل على العكس إنها تكسب في نموها. لذلك وعلى الرغم من أن قطف الزيتون يمكن أن يبدأ من منتصف تشرين أول. إلا أننا كثيراً ما نجد الفلاح يؤجل قبل ذلك بكثير. فمنذ منتصف أيلول يباشر الفلاح في الجول¹⁸. (في أيلول¹⁹ بيدور الزيت في الزيتون والمي في الليمون). وبعد جد الزيتون يستطيع الفلاح الانتظار فترة أسبوعين قبل دراس²⁰ وعصر الزيتون على أن يفرد الثمر في مكان حسن التهوية. وكلما صغرت فترة الانتظار هذه ازداد الزيت جودة نظراً للحد من نسبة الحموضة فيه، ومن الزيت قد صنع الصابون. عدا عن الزيت فالفلاح أيضاً يصنع الزيتون رصيماً (زيتوناً أخضر) ومملوحاً (زيتوناً أسمر). ومن الجدير بالذكر أن تقريب شجر الزيتون يتم عادة أثناء قطف ثمره.

نشاطات غير موسمية

هناك نشاطات تتعلق بالزراعة ولا ترتبط بالضرورة بموسم معين. فبناء السناسل²¹ لتقي التربة من الانجراف، وتحضير وإصلاح الأدوات الزراعية من فؤوس ومقصات وأجزاء السكة وغزل الصوف ونسجه يتمها الفلاح في وقت فراغه. أما نسج الصينية والقدح والجونة وغيرها من الأوعية الضرورية للزراعة والمصنوعة من القش فيمكن أن يتم في أي وقت بعد موسم الحصاد حين يجمع القش اللازم. إلا أن الفلاحة التي تقوم بعملية النسج تفعل ذلك غالباً أثناء التعزيب في كروم التين والعنب نظراً لامتساع الوقت.

¹⁵ . العيش في الكروم.

¹⁶ . بيت من الأغصان والأوراق يقام على الأرض يهدم ويصنع كل سنة بديلاً عنه.

¹⁷ . بيت من الحجارة ويبقى ما صلح تقام العريشة عليه كل سنة.

¹⁸ . جمع ما تساقط من ثمر الزيتون الناضج.

¹⁹ . شهر أيلول.

²⁰ . تحطيم الثمر بعجلين كبيرين من الحجارة بجرها الحيوان أو الآلة.

²¹ . جدران.

الزراعة الحيوانية

معظم الذين يمتلكون قطيعاً من الخراف يملكون أيضاً أرضاً. لذلك كانوا يولكون رعاية القطيع لراع يعمل لديهم طيلة العام. أو يقومون هم بأنفسهم بالمهمة إن صغر القطيع، ومدة الحمل عند الخراف خمسة أشهر. عندما تلد الخراف في كانون الثاني أو شباط أو حزيران فإن الأحمال المولودة تسمى بدري أو ربيعي أو صيفي على التوالي. لذلك، تعطي النعاج حليبها ابتداءً من شباط وآذار. ومنذ هذه الفترة تنهك الفلاحة في حلب النعاج وتحضير اللبن والزبدة والجبن. ومرة واحدة من كل عام وفي أيار بالذات وبعد استحمام الخراف في نبع الماء، يجز الفلاح صوفها ويغزله وينسج على النول: الزنارية²² والبشت²³ والفجة²⁴ أما الطاقة فينسجها بالسنارة.

هل يستريح الفلاح؟

مما تقدم نستطيع الاستنتاج أن الفلاح دائم الحركة والنشاط طيلة العام. إلا أن هناك فترات من العمل المركز المضغوط وفترات من العمل السهل، ولعل شهر آب هو أكثر الفترات راحة للفلاح. إذ يكون قد انتهى من تغطية العنب ومن حصاد ودراس الحبوب، زد على ذلك أن الفلاح يرتاح في الأيام الماطرة التي تقع عادة في شهري كانون أول وكانون ثاني، ويرتاح أيضاً في المناسبات الشخصية كالزواج والجنائز والاستضافة، أما الفلاح المسيحي²⁵ فيستكف عن العمل في عيدي ميلاد السيد المسيح والفصح. والفلاح المسلم يفعل ذلك في عيدي الأضحى والفطر.

معرفة المواسم

للفلاح معرفة جيدة في الخصائص المناخية لكل شهر بل لكل أسبوع في السنة لما للمناخ من تأثير مباشر على الزراعة. فهو يعتقد أن أفضل وقت للفلحة هو الفترة الواقعة ما بين عيد الغطاس²⁶ الغربي²⁷ وعيد الغطاس الشرقي. أي ما بين 6-23 كانون الثاني. وقد تصل به الدقة في التحديد لأن يقول أن المطر يضر بالزرع وبالشجر إن سقط في النصف الثاني من يوم عيد الخضر (6 أيار) بينما لا يفعل ذلك إن سقط في النصف الأول منه.

والسنة عنده مقسمة إلى موسمين: الأول: وهو موسم الشتاء. ويبدأ من عيد الصليب في 27 أيلول وينتهي في عيد الخضر في 6 أيار.

والثاني: هو موسم الصيف. وهو ما تبقى من السنة، وعادة ما يستهدي الفلاح المسلم في بيرزيت بنفس الأعياد التي غالباً ما تكون أعياداً مسيحية، وذلك راجع لقياس هذه الأعياد على النظام الشمسي، على عكس السنة القمرية التي يعتمدها المسلمون والتي

²² . لباس طويل حتى الكاحل وصفه أبيض وأخضر وأسود.

²³ . لباس حتى الركبتين وصفه أبيض.

²⁴ . لباس يغطي منطقة الصدر فقط وصفه أبيض.

²⁵ . غالبية الفلاحين في بيرزيت مسيحيون.

²⁶ . يوم عمدة المسيح في مياه نهر الأردن.

²⁷ . التقويم الغربي وتعتمده الكنيستين اللاتينية والبروتستانتية والتقويم الشرقي وتعتمده الكنيسة الأرثوذكسية.



تتغير بالنسبة للسنة الشمسية مما يصعب اتخاذها كمرجع للفلاحين، فمثلاً بينما يقع حصاد القمح في شهر حزيران من كل عام فإنه وعلى مر السنين لا يقع في شهر قمري معين أو جزء منه.

من يقوم بالأدوار المختلفة؟

العمل الزراعي يتطلب أيدٍ عاملة وفيرة فكثيراً ما كان الفلاحون يهبون لمساعدة غيرهم على إنهاء نشاط زراعي معين وذلك تقادياً للمطر مثلاً أو لتمكين الفلاح البدء وفي حينه بنشاط زراعي آخر يدق على الأبواب. وأوجدت الأسرة الكبيرة الحجم حلاً للطلب على الأيدي العاملة. فكان حتى للصبيبة والفتيات مشاركة في الزراعة كموسم الزيتون والقمح ورعي الماعز الصغيرة مثلاً. أما المرأة فتلعب دوراً مهماً في هذا المجال. ونظرة إلى الجدول التالي تبين حقيقة هذا القول:

الأدوار الزراعية للفلاحة والفلاح

نوع النشاط	دور الفلاحة	دور الفلاح
موسم الحرث	أحياناً البحاثة بعد الحرث	الحرث والبيذار
زراعة الشجر		زراعة الشجر والاعتناء به وتقنيته
موسم القمح والشعير	الحصاد وجمع القش واستعماله للنسيج	الحصاد والدراس
موسم العنب والتين	غطاء العنب وجمع القطين والزبيب وصنع النبيذ والخل	نفس الدور
موسم الزيتون	التقاط الزيتون من الأرض وقطفه باليد، حمل الزيت والجفت من المعصرة للبيت	جد الزيتون أو قطفه باليد، حمل الزيتون للمعصرة
قطيع الخراف .. الخ	تنظيف وإزالة بقايا الحيوانات وإطعامها واستعمال البقايا لتسميد الأرض. وحلب الحيوان وتحضير الزبدة واللبن والجبن .. الخ	الرعي وجز الصوف وغزله ونسجه
متنوعات	بيع الفواكه والخضار ومشتقات الألبان ²⁸ . جلب الطعام للحقل ونقل بعض	نفس الدور نقل معظم المحاصيل من

²⁸ . ازدهرت ظاهرة البيع مع قدوم فترة الانتداب البريطاني على فلسطين.



الحقل	المحاصيل من الحقول والتحطيب والحش.
أحيانا التحطيب والحش	جمع الزعتر وغيره من الأعشاب الطبية والغذائية وتصنيعها.
إعداد الأدوات الزراعية	تصنيع وحفظ بعض المنتجات الزراعية كالصابون والخضار المجفف والزيتون.

الأمثال الشعبية:

تناول المثل المواضيع الزراعية والمناخ، وللمثل دور مهم في الاتصال بين الفلاحين ونقل الخبرات من السلف إلى الخلف فهو يعلم عن الزمان المناسب للقيام بنشاط زراعي معين، لأن لكل فترة زمنية خصائصها من حيث الأمطار والرطوبة والجفاف وطول النهار وقصره. فليس للماء وحده فحسب، بل لكمية الضوء ومدته آثار مهمة في النمو والإثمار والنضوج النباتي والحيواني. فدلالة على قصر النهار في موسم الزيتون يقال: أيام الزيت طول الخيط" أو "أيام الزيت صبحت أمسيت". ودلالة على البرد والمطر في فترتي عيد الصليب وعيد بربراة يقال: "عيد الصليب لا تأمن من الصبيب (البرد)", "عجّ واطلع، صلبّ وادخل" (أي ينتهي التعزيب)، أو "إن صلبّت خربّت" (يسقط المطر فيتلف العنب والتين)، أو "عيد بربراة يطلع المطر من خزوق الفارة".

كذلك لا يجوز الحرث بعد عيد الخضر كما ذكر في السابق: "عيد الخضر، حرّام حطّ النير عالبقر". وبالرغم من الدور الهام الذي تلعبه المرأة إلا أن المثل فيه التمييز حين يقول: "حرثوها السبوعة (أي الرجال) وحصدوها الضبوعة (أي النساء أو الضعفاء)".

والمثل التالي يبدي حكمة وهزلاً بنفس الوقت "موسم التين فش عجبن" نظراً لقيام التين مقام الخبز. وأخيراً بعض الأمثلة الشعبية ذات الدلالة المناخية أو الزراعية المباشرة والتي تتعلق بأشهر²⁹ السنة:

كوانين	"بين كوانين لا تسافر يا شقي"، نظراً للبرد والمطر في هذه الأشهر
شباط	"شباط الخلبط بشبط وبخبط وريحة الصيف فيه" نظراً للتقلب المناخي.
آذار	"آذار فيه سبع تلجات كبار غير صغار"، آذار ساعة شمس ساعة أمطار بنبل الراعي وبنشف (أو بدفا) بلا نار"، "آذار أبو الزلازل والأمطار"، "بتفتح العنقة (أي الأفعى) وبدحي (أو ببيض) الشنار"، "بنبلّ الراعي وبدفا (أو بنشف) بلا نار"، "وينادي: يا معلمتي كبري الرغفان"، "قصر الليل وطول النهار"، "في آذار بحمض اللبن ويكثر الحشيش وبيبرطع (يعدو) الكديش (الدابة)".
نيسان	"شتوة (أو النقطة في) نيسان بتسوى السكة والقدان"، "شتوة نيسان بتحيي الانسان"، "النقطة في

²⁹ . جذور الأمثلة قديمة وقالها قبل دخول التقويم الغربي. فدلالة الأمثال إذن راجعة إلى التقويم الشرقي.



نيسان بتسوى كل سيل سال".	
"في أيار احمل منجلك وغار"، نظراً لوقوع موسم الحصاد، والمقصود هنا أيار حسب التقويم الشرقي أي يقع الحصاد في حزيران حسب التقويم الغربي وكما ذكر سابقاً	أيار
"في تموز بتغلي المي في الكوز" (الإبريق) نظراً لشدة الحرارة، "في تموز اقطف الكوز" (كوز الصبر).	تموز
"آب اللهاب" نظراً لشدة الحرارة، "في آب كل عنب (أو اقطع عنب) ما تهاب".	آب
"في تشرين يغير العنب والتين"	تشرين